آخر نزوات الرئيس

عشرون يوماً هزت العراق (١-٦)

عشرون يوما فقط من الحرب، سقطت فيها دولة عريقة اقترنت الماضي والحاضر ومدت ظلالها الى المستقبل، وسقط نظام عول على بقائه في الحكم، عبر الحروب والمعلن الداخلي وقمع الشعب. ولكم صار وطني لبلد وحد نفسه يتحول فقيا وعموميا في الجلدات شتى بشكل سريع وحاسم، قد لا يكون الناس فيه مهيئين نفسيا لمثل هذا التحول الساحل الذي قلب موازين التوقعات، وأربك الحسابات، وغير من قوانين الوجود الآني في ظرف بنت فيه الحرب لعبة قذرة أخرى، لقد لها صدام حسين بخطيئة وقدرية، وقاد نفسه بالضرورة اليها، منقادا وراء حس عشائري / قبلي / بدوي / طائفي / اصلي / أصيل / منعزل، متناسيا أن الطرف الآخر في هذا الصراع القائل هو الولايات المتحدة الأمريكية ذات الرسالة العسكرية الجبارة، ومتناسيا أن هذه القوة نفسها هي التي حطمت البنية التحتية العراقية في (عاصفة الصحراء) السوداء وقضت على ربع مليون جندي عراقي قتلا وضياعا وأسرا وتعطيلا، بذريعة تحرير الكويت!

عشرون يوما لا غير...

تحرر فيها الوطن وأصلح في الوقت نفسه!!

ليلة مفارقة ساخرة جاء بها القدر في بلاد الرافدين، وفي صدام ذات الذي باع البلاد والعباد في أخر نزوة من نزواته المتكررة، عندما انفلق حواس الإنسان فيه وفتح مسامات الشيطان في جسده وعقله، ليرتكب أكبر النزوات والأخطاء في تاريخ العراق القديم والمعاصر ويسلم الوطن الى الغزاة دون قتال أو مقاومة، ليسجل الشعب عنه، انه رئيس مهزوم بدرجة، رافع المتولوا!

عشرون يوما دامية، هي حصيلة حرب الخاتمة، وحصيلة شعب لم يفقه من

أمواجه الطويلة غير الموت والخلفة والعوز والحرمان من كل شيء، ولم يكن جميع العشرين يوما غريبة على العراقيين المتمرسين بالجراح والدموع، فقد امتلأت الحروب ونزوات الرئيس المريضة، لتجنب بطشه الذي لا يبقي ولا يذر، ولو نجبت الأعمار سدى بمعنى خراب!

الذي حدث، والذي لم يحدث، في هذه النزوة الرئاسية، كان مرتهنا بعامل الوقت، وكان على الشعب أن يحتمل ويلات الحرب وفواجعها في وقت قد يطول وقد يقصر، وأن ينتظر النهاية المحتمة، كيفما جاءت، ومن أي اتجاه، والذي حدث كان ممهوما بين التهويل والترقب، خارج حدود العقل الانساني وتصوراته، فاستطاع بغداد الى الغزاة كان خارج هذه الحدود، فوق العقل، أكبر من الغيبة الخارقة وأقل منها بكثير، أكبر من ضعف جيش لا يريد القتال، وأقل من شعب الخاتمة مرارات الحروب وأهوالها وترك حياة أحيائه الى القدر الأصم.

على نحو مفاجئ وغريب وملتو تلتف والريبة، وجد العراقيون أن يومهم لا يشبه أمسهم القريب، وقفوا على تحقيقهم الغريبة بذهول، كيفما أمسى الحاضر زمنا قادما من الأحلام الصعبة والأمنيات المستحيلة والكوابيس المزلزلة على الصدور، ووجدوا، على نحو صريح، أنهم يتصارعون مع كابوسين، كابوس الأمس الذي حتى استلم الجميع تجربته وعقابيله، وكابوس اليوم الجديد الذي جاءت به الصرفات الأمريكية ورشاشات تاريخ وجوه الجنود الظفر، وهم يجوبون طول البلاد وعرضها، كـ (محررين) وفاتحين وغزاة، مصوبين بأهداف وبيت وشمال وصواريخ وجيش مجهز بكل أصناف الحشد، لغزو البلاد صراحة وأمام أنظار العالم الذي ظل يراقب هذا الظلم الحربي الغريب، بالصورة الحية والموت الذاتي أمام الأنظار، غير قادر على أن يوقف الغول الأمريكي الزاحف عبر الصحراء، هذا الغول الذي وصل بغداد دون عناء وبأقل من الوقت المخصص له وبأقل الخسائر، بعد أن تلت الحرب أمرا، وحقق الغزو الأمريكي أهدافه بسحر عبر عشرين يوما عاصفات بكل ما هو مخيف ومثير وفاجع، ذهب صدام حسين غير مأسوف عليه، مطاردا لمدينة الثهر، حشي القي القبض عليه في حفرة المكتوبة الخاوية، في وضع مخز لم يكن أحد منا يتصوره، نحن العراقيين حصرا، فهذا الرئيس الخلوع كان مالئ الدنيا وشاغل الناس في أخر مطوبوية العراق التي قضاها على مقامات البقاء الى الأبد، له وتواليه ومن يرثهما لاحقا من أبناء وبنات، لكن العراق بقي وطن الجميع، وطن الجياع والأمهات والآباء والأبناء، وطن الصعاليك والمثقفين والمزارعين والشباب والطلبة، بقي وطن العراقيات الجميلات والطيور الحلقة في سماء بلا بساتين، هو وطن الحرية الخاصة من عرين الذل وان جاءت على الدبابات الأمريكية مع العلم.

الليل الذي سبق فجر الصواريخ الأول، كان مظهرا، ومنتميا بخاصة شرقية كالسحر ترعشت مع حرب فقدت الدليل عليها، لكنها ابتدأت عنوة بصواريخ عملاقة، مجهولة، دكت بغداد في أول صباح جاءت نذرة محمولة على قصف وعصف ورعد وطائرات وحياة بطيئة استيقظت على عطرب مكسور لمساحة حائط لم تكف عن الاهتزاز، وعلى أنباء متضاربة وإيقاعات متضررة في حد ذاتها للنظر، فالعراقيون الذين يزحفون في حرب ثالثة، حدثوا منذ اللحظة الأولى أن نهاية النظام قد حانت وبدأ الأجل المحتوم، وأولا الخوف المزمن في دواخل الناس، وهو خوف تاريخي قل نظيره بين الشعوب لارتباكات الواجهة الاجتماعية التي كانت تستعمل (النهاية) الكبرة وأربعا كان الضحايا أكثر مما تحتمله، أو انفتحت الأفواه من مجنونها الأزلي، وتحركت خلجة الصدور، لكن الضحايا التي تعرف فاتحها عبر عمر طويل، أدركت بغريزة البقاء فيها، أن متاطحة ثور بري محاصر لعبة خطرة، فلم تقلب المعادلة وتفرق البلاد في بحر من الدم.

وفي المشهد الاستعراضي الأول للحرب، فقلت الحياة طبيعية، بعد أن كدس الناس من المواد الغذائية والطبية والمياه والأموال ما يكفي لحرب تستمر شهرا طويلة، وإذا ما كانت الحاجات الضرورية أكثر الحاجات احتداما وقلقا، فإن العاصمة بغداد كانت تتحسب لما هو أسوأ في القادم من الأيام، كونها الهدف الأخير للحرب، فوجود أقطاب النظام وعناصره والحرس الجمهوري والحرس الخاص والحرس الرئاسي والميليشيات الحزبية والعدلية وقوات من جيش القدس والمتطوعين العرب، ربما لهذا الشكل العسكري والقيادي الخاص، كانت بغداد تتأهب لحصار طويل أو اجتياح قاس، بأسهام القوة الجوية الرهيبة، وقد يكون المواطنون استلموا لهذه الحقيقة قبل الحرب وفي أيامها الأول، فكان النزوح الجماعي تأشير البدائية علامة من علامات البأس والتسليم، وربما الاستسلام، وعلامة من علامات الإقرار بعدم الصمود الى نهاية النوط الدموي، وما كان النظام قادرا على وقف ذلك النزوح الى القرى والأرياف والضواحي للأصلة العاصمة، ذلك النزوح الذي تكثفت به الشوارع الرئيسة الخارجية من العاصمة لأمر تركك الفالي والنفيس، لتتجمع من مجتمعة قائمة متحركة اثناء الهواء، فأصدت عام ١٩٨١ لا تزال قريبة من الألم العراقي الجماعي، ودم الأمريكا لا يزال مسموما على مفارقات الطرق والأرصفة والبيوت، وأيامي (عاصفة الصحراء) قريبة من الأنفاس والذكريات، برغم أن أعوام الحصار الطويلة كادت تعفي على ذكراها ومآسيها المفجعة، على أن التوبير دائما هو (الثمن) الذي ينبغي على كل عراقي أن يدفعه وقوفا مع (أبادان) التي هشمها شعارتها المعلة، والمعلنة (...) في نهاية المطاف!

كزار حنتوش ..

الكلمات المبللة بزخات المطر

من أحلام البيوت الحقيقة والأرقة النزية المرشوشة بالماء صيفا.

من الركض خلف سيارات البلدية وعربات الخبز في أزقة الصويخة، ومن بين بيوت الطوابيق الدينية العتيقة والجديدة، وتجمعات الناس في الأعياد وأيام السبت في مرقد ابن الكاظم.

من تقاطيع الوجه الذي عجلته سنوات القهر لتكاتح قصار حزينا مهموما من أيام الفطر الهرب من فرحه ولم يستطع أن يغادر الطفل أو يهمس في أذن النجمات، وحين يريد أن يبتسم يمتلئ فرحته من وسط جثة الألم الكامن في روحه.

من بين كل هذا الركام الفطر تنتشر قصائد الشاعر كزار حنتوش بسيطة وعفوية وبساطة مثل قرص الخبز الخارج توا من تنور الأمهات. لكن الشكلة من أين يستمد الشاعر كزار حنتوش كلماته وشاعريته؟ محيطه الجغرافي الممتد مابين شط الديوانية والجسر الخشبي والسوق السقف بصفائح (الجينكو) المتطايرة مع الرياح ومكانية عارف وكباب بلال والكتابة العامة التي يغشى الفطراء ان يدخلوها خشية من صمتها فالفطراء يحبون الضجيج.

وكزار حنتوش الذي يمطي قامته بين حدائق نادي الموظفين في الدينة ومحلة السراي فيختصر الكلمات فتصير معلقة كالعمر المتوقع بالشيب قبل أوانه، فتزدحم الكلمات في صدره وتضيق عليه فتحبس أنفاسه ليحتفظها لنحرا دون أن يريد.

"وكانا يناشب السعينات لقلل وحيدا تعوي
مامن أحد سيقول الحال سواء
سيصبح الصوت رويدا
وتموت شريدا كمغني نهر يوبب"..

وحين يهتم كزار حنتوش بنقل كل ملفوظاته المتمدة من أمام بوابات السينمات عبر الجسر الخشبي الفاصلي نصفه بمياه شط الديوانية فالحقيقة كل أشامه فوق كرب النخل فوق تموجات النهر البائس، يصل الى العاصمة فاتحا ذراعيه عند الجسر لايتوقف الا عند الباب الشرقي يطلقه باب بيلهم وتركت لوقيعه فوق قلوب الناس.

ثمة مايدهش الناس من خارطة الزمن المنقوش فوق تقاطيع وجه الشاعر كزار حنتوش، ثمة مايلفت النظر حول جسده الناحل وكلماته التي تقفز الى باطن كفيه فيطلقها في الهواء الطلق لتصير مفيوزوارس.

"في الشام لنا نخلة
قلموا كل جدائلها
كانت خلف عيدان لنا قرية
قلموا عاريها... سلقلها
والآن خرجنا من ((مكة))
لم نربح بيعا كسبيب..."

يوزع ابتسامه بين مقاهي الحضارة ومقهى السوق ويتمدد فوق الشطايا التي جمعها من الحرب التي دخلها وفتكت فيه الكلمات الجميلة، ويبقي طفيتها يدوي في أذنيه يأكل منه الغفة والحداثة والشعر.

ولا تم لتستجلح السلطة الغاصبة من ترويض قصائد كزار حنتوش فقد بقي أمينا على بقائه صعلوكا لا يأمن أحد شره والإستجابة لرغبات المحتلين.

عند أول حالة يعلن استقلال البلاد، وحين يدنف فيها يؤسس لجمعه الثوري وشعره الذي ينبع من بين ضلوعه البارزة من تحت قميصه الواهن، وإذ تتجمع كل حكايات المدينة الجليلة والعبقة ترسم بعض الأسماء أحرفها فوق عيون كزار حنتوش، فتظهر مرسومة على شكل (حنبلي، وابو الحبيب، والعبيدي، ومطريق عفك وبساتين الخصيصة وابو عبد الله وطريق الأسكان).

"يامن أسرفت بأكل الخمر، على ريب
وقصصت بجرعة ماء
لم تم لتبتلع الماء..."

"الحزن عما لم ينزل من صلب الجد وعن
تشتر وأنت بعيد
نزع أظفار العيب
تقول العيب، العيب، العيب، العيب
ثورت العالم بالعيب..."

وتختلط صورة سومر والحضارة وعفك وأسكافيها الذي رحل مفلسا وبائعة الرصافة وشط الديوانية والأصحاب وقناعة بكسرة كلمة وحرفة تهر وحقيبة للتحلوي الا على قصاصات يمن اليها، وأهلها ميراثه الوحيد مع أضطرارات روحه المشتعلة والمفعمة بمحبة الفقراء والناس.

هو الشاعر كزار حنتوش مهلب وحزين وبعيد عن الأناقة مثلبس بشيطان الشعر والذي ربما جعله كزار يمن منه فيسجل عملية انتقاء الكلمات التي تأتيه مروضة وطائعة وأنيقة ودقيقة.

كزار حنتوش أحدى الحكايات التي تحتفظ بها مدينة الديوانية في الذاكرة والتباهي بها بين المدن العليمة النسبية على خارطة العراق، وهو وحده القادر على أن يحول بعلة الناي الحزينة في كلمات، وهو وحده من يوقظ أمثال الحزن والألم الانساني في كلمات رافضة، وهو الشاعر الذي يمكن أن نسمي نصفه الجنون ونصفة الشغل غراما ويحمل نصف قلبه بيده ويرسم الكلمات في اليد الأخرى...

الطرافة والغرابة في حارة مصرية

(فضل الله عثمان) ليس اسم رجل ولا هو سارد لحكايات عاشها أو سمع بها، انه شارع أو حي، وربما منطقة في مصر، تكون في القاهرة أو الاسكندرية أو الصعيد، حيث تتوزع في ساحات تلك المدن وأزقته عشرات العوالم والشخصيات ذوات الأسماء التي لا تمتلك امتيازا كبيرا أو خصوصية تجري الأحداث في مثل عثمان رحيبة، تتولد في كل لحظة وثانية، وتتخلق من هبوب النسيم وطوران الفرشات وصرير النهر وتداعي الجدران القديمة، تنزوح ما بين الطرافة في مفارقتها كما في قصة (مشهد جنائي) عن انهيار سرير لرجل متبطر يقرر ترك عمله، والغرابة الخارجة عن مألوف احداث فضل الله عثمان، مثلما في قصة (نكتة) حيث تقتضب امرأة رجلا يبيع الفحم وسط عتامة الفجر وهدوء الظلمة.

مثل يسوق الطرافة والغرابة كليهما، التمييع الذي يرع فيه ابراهيم اصلان منذ مجموعته الأولى، اما التصريح والمباشرة فلا يحضران الا في أقل ما يمكن من مساحات السرد، فالقصص القديمة تمنح نفسها بلغة واقتصاد، تتحول في قسم منها الى منمنمات مخطوطة بدراية ورؤية الوصف، فالقصة يرسم اطارا فنيا للحدث، لا يتنقل عليه بالبلغة الفاضحة أو الانشائية، والحوارات برقية ومتممة، كأن المتحاورين في طريقهم الى النوم، أو غير مستعجلين طلاقا، وهذا أمر معروف في فضل الله عثمان، خاصة والقادر تمير دولاب الحياة، الدنيا ترم على كيفها، وانبثر معظون بريشتها الطائرة برخاء في سماء مصر.

القصص ليست دراماتيكية، ولا معقدة، ولا مرائية بل هي بسيطة لكنها موحية، تشجع بالهموم الانسانية والعاطفة والحرية والبحث عن سعادة مفتقدة، وكأنها مقطوعات شعرية لها نفس ملحمي، تصور البشر في لحظة من التاريخ احدى وعشرون قصة، في مجموعة عدد صفحاتها ست وثمانون، تذكرنا بالشيخوف الروسي، ويمتلك النفسة المجهولة من الفن، ويمتلك الجمال الخفي الذي لا يقدر على امتلاكه سوى كبار الكتاب، ومن تلك المقطوعات النثرية، المتممة يمكن تجميع صورة موحية عنيد، لكان اسمه فضل الله عثمان، يمكنه تأمر بمطلات، فيه هفاء متواضعة، وأطفال يطيرون الطيارات الورقية، ورجال يبيعون الفحم توقف الشتاء، وتبدأ بالكاد يجدن وجبة طعام، لكنهن يطمئن بشعرهن وحواجبهن وروائحهن، كما في الفحم الصور الرعوية أو الفاضلية.

تجد رجالا محبطين، ومحظين وحالمين ومتذمرين، شرائح ومستويات وخصائص، وباختصار انها بيئة مصر، بيئة الشريحة الأوسع التي تعيش في فقر مدقع، حياتها تمضي بقدرية قاتمة، تلد وتعيش بمرارة ثم تموت لتنتقل مثل من الطائرات والسطح، جانب الموت والبعد مصرفة الأقدار، وفي قصة (طرف من خبر العائلة) تموت رجل الشاب فقط التي لابد من دفنها، عبر مفارقة ساخرة وموحية، لا تقطع من قبل الطبيب عند الفقد بعد اصابته بالخفرينا، عدا الموت هناك الجنون، وهو بعد انسانية تظهر بشكل نسبي لدى البشر، هو فنون وأشكال، وله مكانا على وجه الأرض مطرح وخير، وأبرز ما تجلى الجنون الطريف، في قصة (مدخل) ابراهيم اصلان، على ما يبدو، جعل من هذه القصة مفتاحا لحارة فضل الله عثمان، فالحدث يختلط فيه الجنون مع السوريالية والأمطول، رجلان يتحاوران في عرض الشارع، موضوع الحوار طماح غاز، لا طلبت زوجة واحد من الرجلين ان يشتريه بستة قروش، وفي النهاية يكشف الثاني غرابة الطلب، فالعادة ان الطباخات تمتلك ست عيون غاز لا ستة قروش، ولا يحل الى جنون محدثه الا في النهاية، مجموعة اصلان هذه لوحة انسانية متعددة الأوجه، فيها رجال يتركون عملهم بسبب الملل، كما في قصة مشهد جنائي، وآخرون مسحورون بمباريات كرة القدم ونساء وتكريبات ومآس ومعاكس وتداعيات متناهر كما في قصة (البيك)، كل ذلك يجري يوميا في حارة فضل الله عثمان، يعترف القاص لتلك الأحداث بذلك، وذلك حاد ويواج يصوغ لعبنا ساخرا احيانا، لكن السخرية الشبعة بالحزن والألم والحب.

قصص محسوبة للشخصيات تعيش الحياة دون افكار مسبقة أو نظريات، تنفسر بتيار جارف يتوغل في البيوت والأزقة والغرف ويجعل البشر يقتلعون من سريانه، تيار الوجود البشري لا يتنقل في الغرف والجدران والأرضيات، ويبتر مثل محرك سري، كأنني لالتقطه الرأة في غرفتها مصاطفة، وذلك في قصة (صوت).

ثلاث قصائد

لئن لاموا لك هذا النصب
وعلقوا عليه زخارفهم
وبالوناتهم الملونة
ثم احاطوه بأغصان الغار
فذلك
لأنك مازلت تثير مخاوفهم
حتى بعد أن أشيعوك موتا
مازالوا يرفضون أن
يصدقوا
ان الجسد المسجى أمامهم
هو جسدك...
وان العينين الدامعتين هما
عيناك...
وان الوجه المسحوب على
الاسفلت هو وجهك
لهذا
فقد لاموا لك هذا النصب
لا ليمجدوا تاريخا أبيض
بل
ليطفئوا النار عليك مرة
أخرى.

دائما
حين تكون وحدك
مستلقيا على فراشك
او جالسا الى فرصاء على
اريكتك الناعمة
تتصفح كتابا
او تغرق نفسك في الصمت
تتعبر
ان بينك وبين نهايتك
المؤجلة
ثمة متسعا
لكتابة قصيدة أخرى عن
الندى!

محاولا الهرب
لا أجد مهربا منك الا اليك
ولا الغمو ابدا
الا ويدي على قلبي
متوجسا
مطمئنا في الظلام